

والتصرف ، فقال النبي ﷺ لصحابته : « أما كان فيكم من يُجهز عليه ؟ » فقالوا : يا رسول الله لو أومات لنا برأسك ؟ يعني : أشرت إلينا بهذا ، انظر هنا إلى منطق النبوة ، قال ﷺ : « لا ينبغي أن يكون لنبي خائفة الأعين » (١) يعني : هذا تصرف لا يليق بالأنبياء ، فلر فعلتموها من أنفسكم كان لا بأس .

ثم بعد ذلك تحل بركة عثمان على ابن أبي السرح فيؤمن ويحسن إسلامه ، ثم يؤولي مصر ، ويتود الفتوحات في إفريقيا ، ويتقلب على الضجة التي أثاروها في بلاد النوبة ، وكان الله تعالى كان يدخره لهذا الأمر الهام .

وبعد هذه العجائب التي رأيناها في مراحل خلق الإنسان وخروجه إلى الحياة والإقرار لله تعالى بأنه أحسن الخالقين ، يُذكرنا سبحانه بأن هذه الحياة لن تدوم ، فيقول تبارك وتعالى :

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿٥٠﴾

ولك أن تسأل : كيف يُحدثنا الحق - تبارك وتعالى - عن مراحل الخلق ، ثم يُحدثنا مباشرة عن مراحل الموت والبعث ؟
نقول : جعلهما الله تعالى معاً لتستقبل الحياة وفي الذهن وفي الذاكرة ما ينقض هذه الحياة ، حتى لا تتعالى ولا تغفل عن هذه النهاية ولتكن على بالك ، فترتب حركة حياتك على هذا الأساس .

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢٦٨٢) . والنسائي في سننه (١٠٦/٧) من حديث سعد بن أبي وقاص ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « أما كان فيكم رجل يرغب بقرم إلى هذا البيت ركني كسفت يدي عن بيئته فيلته ؟ » فقالوا : ما ندرى يا رسول الله ما على نفسه ، إلا أومات إلينا بعينه . قال : « إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائفة الأعين » .

ومن ذلك أيضا قول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلَكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١ ﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا... ٢ ﴾ [المك] كآته سبحانه ينمى إلينا أنفسنا قبل أن يخلق فينا الحياة ، وقلّم الموت على الحياة حتى تستقبل الحياة وتستقبل قبلها الموت الذى ينقضها فلا تغتر بالحياة ، وتعمل لما بعد الموت .

وقد خاطب الحق - سبحانه وتعالى - نبيه ﷺ بقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ٣ ﴾ [الزمر] البعض يظن أن مَيِّتٌ بالتشديد يعنى مَنْ مات بالفعل ، وهذا غير صحيح ، فالْمَيِّتُ بتشديد الياء هو ما يؤول أمره إلى الموت ، وإن كان ما يزال على قيد الحياة ، فكلنا بهذا المعنى مَيِّتُونَ ، أما الذى مات بالفعل فهو مَيِّتٌ بسكون الياء ، ومته قول الشاعر^(١) :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاعَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ^(٢)

ومعنى : ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ١٥ ﴾ [المؤمنون] يعنى : بعد أطوار الخلق التى تقدمت من خلق الإنسان الأول من الطين إلى أن قال سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ١٦ ﴾ [المؤمنون]

والماتل فى هذه الآية وهى تُحدّثنا عن الموت الذى لا ينكره أحد ولا يشك فيه أحد ، ومع ذلك أكدها الحق - تبارك وتعالى - بأداتين من أدوات التوكيد : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ﴾ [المؤمنون] فأكدها بإن وبالله ، ومعلوم أننا لا نلجأ إلى التوكيد إلا حين يواجهنا مفكر ، فيأتى التأكيد على قدر ما يواجهك من إنكار ، أما خالى الذهن فلا يحتاج إلى توكيد .

(١) هو : حدى بن الرملة الشافعى . شاعر جاملى . اشتهر بنسبه إلى أمه . وشاع اسم أبيه . [الأعلام للزركلى ٢٢٠/٤] .

(٢) ذكره ابن منظر فى لسان العرب - مادة : موت .

تقول مثلاً لخالي الذهن الذي لا يشك في كلامك : يجتهد محمد ، فإن شك تؤكد له بالجملة الاسمية التي تفيد ثبوت واستقرار الصفة : محمد مجتهد ، وتزيد من تأكيد الكلام على قدر الإنكار ، فنقول : إن محمداً مجتهد ، أو إن محمداً لمجتهد ، أو والله إن محمداً لمجتهد . هذه درجات للتأكيد على حسب حال من تخاطبه .

إذن : أكد الكلام عن الموت الذي لا يشك فيه أحد ، فقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ [المؤمنون] ومع ذلك لما تكلم عن البعث وهو محل الشك والإنكار قال سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ ١٦

ولم يقل : لتبعثون كما قال ﴿ لَمَيِّتُونَ ﴾ [١٥] ﴿ [المؤمنون] فكيف يؤكد ما فيه تصديق وتسليم ، ولا يؤكد ما فيه إنكار ؟

قالوا : نعم : لأن المتكلم هو الله تعالى ، الذي يرى غفلتكم عن الموت رغم وضوحه ، فلما غفلتم عنه كنتم كالمكذّبين به المنكرين له ، لذلك أكد عليه ، لذلك يقال : « ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت » فالكل يعلم الموت ويعاينه ، لكن يبعده عن نفسه ، ولا يتصوره في حقه .

أما البعث والقيامة فادلتها واضحة لا يصح لأحد أن ينكرها ؛ لذلك جاءت دون تأكيد : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [١٦] ﴿ [المؤمنون] فادلة البعث أوضح من أن يقف العقل فيها أو ينكرها ؛ لذلك ساطلقها إطلاقاً دون مبالغة في التوكيد ، أما من يشكك فيه أو ينكره ، فهذا يؤكد له الكلام . فانظر إلى بصر الحق - سبحانه وتعالى - بعقليات خلقه وبنفوسهم وملكاتهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا

عَنِ الْخَلْقِ غَفِيلِينَ ۝١٧﴾

عن الخلق غفيلين ١٧

نلاحظ أن للعدد سبعة مراتف في هذه السورة وأسراراً يجب أن نتأملها . ففي استهلالات السورة ذكر سبحانه سبعة أجناف : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الذين هم .. ٢﴾

وهي مراحل خلق الإنسان فعبده من سبعة أطوار : سلالة من طين . ثم نطفة . ثم علقة . ثم مضغة . ثم عظاماً . ثم لحماً . ثم لنشأناه خلقاً آخر .

وهنا يقول : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ۝١٧﴾ [المؤمنون] وفي موضع آخر قال : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَفِي الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ۝١٧﴾ [الطلاق]

فهذه سبعة للغاية ، وسبعة للمقيا له ، وهو الإنسان ، وسبعة للسموات والأرض المخلوقة للإنسان .

وطرائق : جمع طريقة أي : مطروقة للعلائكة ، والشيء المطروق ما له حجم يتسع بالطريق . كما تطرق قطعة من الحديد مثلاً . فانظر إلى السماء واتساعها . وقل : سبحانه من طرقها .

ونلاحظ أن الحق سبحانه لم يذكر في هذه الأرض زواياها ؟ قالوا : لأن الأرض تقف عليها ثابتين لا نخلف من شيء . إنما الخوف من السماء أن تندك فوقنا ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿وَمَا كُنَّا عَنْ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّهُ فِي الْأَرْضِ
وَلِنَاضِلٍ ذَهَابٍ بِمِائِدَتِهِمْ﴾ (١٨)

يقول تعالى عن الماء : ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ (١٨) [المؤمنون] فهل الماء مقره السماء ؟ لا ، الماء مقره الأرض ، كما جاء في قول الله تعالى : ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦) وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴿ (١٠) ﴾ [نصت]

لما استدعى الخالق - عز وجل - الإنسان إلى هذا الوجود جعل له في الأرض مقومات استبقاء حياته من الهواء والقوت والماء ، والإنسان كما قلنا يستطيع أن يصبر على الطعام ، وصبره أقل على الماء ، لكن لا صبر له على الهواء ؛ لذلك شاءت قدرة الله ألا يملكه واحد ؛ لانه مقوم الحياة الأول ، فالغلاف الجوي والهواء المحيط بالأرض تابع لها وجزء منها داخل تحت قوله : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ (١٠) ﴾ [نصت] بدليل أنهم حينما يخرجون عن نطاق الأرض يمتنع الهواء .

ومن حكمة الخالق - عز وجل - وقدرته أن جعل الماء على الأرض مالحة ؛ لان الملح أساس في صلاح الأشياء التي يطرا عليها الفساد ، فالماء العذب عرضة للتغير والعطن ، وبالمالح تصلح ما نخشى تغيره فنضعه على الطعام ليحفظه ونستخدمه في ديافة الجلود .. الخ

لذلك قال الشاعر :

يَا رِجَالَ الدِّينِ يَا مِلْحَ الْبَلَدِ مَنْ يُصْلِحِ الْمِلْحَ إِذَا الْمِلْحُ قَسَدَ
إِذَنْ : أصل الماء في الأرض ، لكن ينزل من السماء بعد عملية
البخار التي تصفيه فينزل عذباً صالحاً للشرب والرى ، قلنا : إن
الخالق سبحانه جعل رقعة الماء على الأرض أكبر من رقعة اليابسة
حتى تتسع رقعة البحر ، ويتكون المطر الذي يكفى حاجة أهل
الأرض .

ومن رحمة الله بنا أن ينزل الماء من السماء ﴿بِقَدْرِ﴾ (١٨)
[المؤمنون] يعنى : بحساب وعلى قدر الحاجة ، فلو نزل هكذا مرة
واحدة لأصبح طوفاناً مدمراً ، كما حدث لقوم نوح ولأهل مارب .
وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا
نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ﴾ (٢١) [الحجر]

ثم يقول سبحانه : ﴿فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ..﴾ (١٨) [المؤمنون] لأننا
نأخذ حاجتنا من ماء المطر ، والباقي يتسرب في باطن الأرض ، كما
قال سبحانه : ﴿فَلَسَّكَ يَتَابِعُ فِي الْأَرْضِ﴾ (١١) [الزمر] ومن عجب قدرة
الله في المياه الجوفية أنها تسير في مسارب مختلفة ، بحيث لا يختلط
الماء العذب بالماء المالح مع ما يتميز به الماء من خاصية
الاستطراق ، والعاملون في مجال حفر الآبار يجدون من ذلك عجائب ،
فقد يجدون الماء العذب بجوار المالح ، بل وفي وسط البحر لأنها
ليست مستطرفة ، إنما تسير في شعيرات يفصل بعضها عن بعض .

والمياه الجوفية مخزون طبيعي من الماء تُخرجه عند الحاجة ،
ويعرفنا إذا نُضِبَ الماء العذب الموجود على السطح ﴿فَأَسْكَنَاهُ فِي
الْأَرْضِ..﴾ (١٨) [المؤمنون] ليكون احتياطياً لحين الحاجة إليه ، فإذا جفَّ
المطر تستطيعون أن تستنبطوه .

ثم يذكّرنا الحق سبحانه بقوته على عباده هذه النعمة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ (١٨) ﴿[المؤمنون]﴾ يعني: سيروا في هذه النعمة سيرا لا يعرضها للزوال. وقال في موضع آخر: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَمْسَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ (٢٠) ﴿[المؤمنون]﴾

وحسن تعدّد نعم الله التي امتنّ علينا بهذا بداية من نعمة المياه: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بَقُولُوا﴾ (١٨) ﴿[المؤمنون]﴾ تجدها أيضا سبعة: ويبدو أن لهذا العدد أسراراً في هذه الصورة. فقد ذكر من أوصاف المؤمنين سبعة: ومن مراحل خلق الإنسان سبعة: ومن السموات والأرض سبعة: ومنها يذكر من نعمه علينا سبعة: لذلك كان العلماء وقفات عند هذا العدد بالذات ﴿وَاللَّهُ يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ﴾ (٢٠) ﴿[المؤمنون]﴾

وأذكر ونحن في المملكة السعودية وكنت أستاذاً في كلية الشريعة لعمى بعض الأساتذة ورئيس يعشق الشيوخ زكى فهد بن رحمه الله وعقر الله له - ورئيس بعثة المعارف الأستاذ صلاح بك الهافراء وكان دائماً ما يجلس معنا شبع علماء المملكة في هذه الوقت السيد إسحق مزوز، وكان يجتمعنا كل ليلة الفندق الذي نقيم فيه، وكنا نتبارس بعض قضايا العلم، في يوم من الأيام جلسنا في مجلس

وقد أثار الشيخ إبراهيم عطية قضية هذه العدة في القرآن الكريم، وكان يقرأ في تفسير القرطبي فوجد فيه: قال عمر بن الخطاب لابن عباس: يا ابن عباس أتعرف متى ليلة القدر؟ فقال ابن عباس: أغلب الظن أنها ليلة السابح والعشورين، فلما سمعنا هذه الكلام قلنا: هذه سبعة وعشرون، فلما اختلفنا التراج علينا الشيخ حميد أبو علي - أطل الله عز وجل أن يذهب لنصلي في الحرم فدل أن نعتلي في الفندق عملاً بسنة رسول الله ﷺ، وقد كان كلنا حزبه أمر يقوم

إلى الصلاة ، وقتها : رُفِعَ اللهُ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ الْحِسَالَةِ .
وبعد أن صلينا جالساً نناقش هذه المسألة : فإذا برجل لا نعرفه
على سمة المجاذيب غير مهم بنفسه ، يجلس بموارنا وينصت لما
نقول ، ثم شاركنا الكلام وقال : ألم يقل رسول الله ﷺ : « التمسوها
في العشر الأواخر من رمضان » (١) ؟ إذن : فندعكم من العشرتين
يوماً ، واحسبوا في العشر الأواخر ، ثم نظرنا فلم نجد ، كان وحدة
الزمن التي توجد بها ليلة القدر في هذه العشر ، وكأنها بهذا المعنى
ليلة السابع ، وهذه أيضاً من أسرار هذا العدد ﴿ وَفُتِيَ كُلُّ ذِي عِلْمٍ
عَلِيمٌ ﴾ (٧٦) [يوسف]

أطال الله في عمر من بقي من هؤلاء ، وغفر الله لمن ذهب .
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْتَبُ
لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَ كَثِيرَةً وَمِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (١٨)

الجنة : المكان العلى ، بالأشجار الطيبة والمزروعات التي تستر
من يسير فيها ، أو تستره عن الخارج ، فلا يحتاج في متطلبات حياته
إلى غيرها ، فهي من الكمال بحيث تكفيه ، فلا يخرج عنها ، واختار
هذه الأنواع ﴿ نَجِيلٍ وَأَعْتَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَ كَثِيرَةٌ ﴾ (١٨) [المؤمنون] لما
لها من منزلة عند العرب ، وقال ﴿ فَوَاكِهَ كَثِيرَةٌ ﴾ (١٨) [المؤمنون] لأنه لم
يحصر جميع الأنواع .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٢١) من حديث ابن عباس ، وأخرجه مسلم في صحيحه
(١١٤٩) كتاب الغنيمة عن أبي هريرة رضي الله عنه باللفظ ، لم يرد ليلة القدر ، ثم أيقظني
بعض أهلي فتمسيتها بالتمسوها في العشر الفواخير .

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصَيِّغٍ لِلْأَكْلَنِ﴾ (٦)

الطور : جبل منسوب إلى سيناء ، وسيناء مكان حزن : لان الله بارك فيها ، والطور كلم الله عليه موسى ، فهو مكان مبارك ، كما بارك الله ارض بيت المقدس فقال : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (١) [الإسراء]

ومعنى ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ (٦) [الزُّمْتُون] الدهن هو الدَّسَمُ ، والمراد هنا شجرة الزيتون التي يستخرجون منها الزيت المعروف ﴿وَصَيِّغٍ لِلْأَكْلَنِ﴾ (٦) [الزُّمْتُون] يعنى : يتخذونه إداماً يغمسون فيه الخبز ويأكلونه ، وهو من أشهى الاكلات والدها عند مَنْ يزرعون الزيتون فى سيناء وفى بلاد الشام ، وقد ذُقتنا هذه الاكلة الشهيرة فى لبنان ، عندما ذهبنا إليها فى موسم حصاد الزيتون .

﴿وَلَا تَكْفُرْ فِي الْإِنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَكْفُرُ بِطُورِهَا وَلِكُرْفِهَا مَتَّعُ كَثِيرَةً وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧)

الانعام : يُراد بها الإبل والبقر ، والحق بالبقر الجاموس ، ولم يُذكر لأنه لم يكن موجوداً بالبيئة العربية ، والغنم وتشمل الضأن والمعاز . وفى سورة الانعام يقول تعالى : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ الثَّيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ الثَّيْنِ..﴾ (١٤٢) [الانعام]

ويقال فيها : أنعام ونعم (بفتح النون والعين) .

والعبرة : شيء تعتبرون به وتستدلون به على قدرة الله وبديع صنعته فى خلق الانعام .

لكن ، ما العبرة في خلق هذه الأنعام ؟ الحق - سبحانه وتعالى -
تكلم عن خلق الإنسان ، وأنه تعالى خلقه من صفوة وخلصة وسلالة
من الطين ومن النطفة ، وهكذا في جميع أطوار خلقه . وفي الأنعام ترى
شيئاً من هذا الاصطفاء والاختيار ، فالأنعام تأكل من هنا وهناك وتجمع
شتى الأنواع من المأكولات ، ومن هذا الخليط يخرج الفَرْث ، وهو مُنْتَن
لا تطيق رائحته ويتكون دم الحيران ، ومن بين الفَرْث والدم يَصْقَى لك
المخلوق - عز وجل - لبناً خالصاً . وهذه سلالة أيضاً وتصفية .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ
بَيْنِ فَرْثٍ ^(١) وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل]

ونلاحظ أن الآية التي معنا تقول : ﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ ^(٢)
[المؤمنون] وفي آية النحل : ﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ ^(٣) [النحل] ذلك
لأننا نأخذ اللبن من إناث الأنعام ليس من كل الأنعام ، فالمعنى ﴿ مِمَّا
فِي بُطُونِهَا ﴾ ^(٤) [المؤمنون] أي : الإناث منها و ﴿ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ ^(٥)
[النحل] أي : بطون البعض ؛ ولذا عاد الضمير مذكراً .

وقوله : ﴿ نُسْقِيكُمْ ﴾ ^(٦) [المؤمنون] من سقى ، وفي موضع آخر
﴿ فَأَسْقِيكُمْوه ^(٧) ﴾ [الحجر] من الفعل أسقى . البعض يقول إنهما
مترادفان ، وهما ليسا كذلك لأن لكل منهما معنى ، فسقى يعنى : أعطاه
الشراب ، أما أسقى فيعنى جهز له ما يشربه لحين يحب أن يشرب ^(٨) .

(١) الفَرْث : ما في الكرش من طعام مهضوم متغير كبريه الرائحة . [الفيلسوف القويم
٧٤/٢] .

(٢) قال الضراء : العرب تقول لكل ما كان من بطون الأنعام ومن السباع أو شجر يجري القوم
أسقى . فإذا سقاه ماء شطفه قالوا سقاه ولم يقولوا أسقاه . كما قال تعالى : ﴿ وَمَقَاهُمْ
رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ ^(٣) [الإنسان] ، وربما قالوا لما في بطون الأنعام ولما السباع سقى
واسقى . [لسان العرب - مادة : سقى] .

فذلك لما تكلم الحق سبحانه عن عذابي الجنة فقال : ﴿ وَحَلُوا
أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [النحل]

ولما تكلم عن ماء النعيم قال سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ
قَانٍ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ مَصَرًا وَمَا أَتَمُّ لَهَا بِحَارَتِينَ ﴾ [الحجر]
يعنى : جعله في مستودع تحين الحاجة إليه .

كما قلنا في (مريض) بالكسر ، و (مريض) بالفتح ، فمرض
بالكسر للتي ترضع بالفعل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنها تَذَلُّ كُل
رَضِيعَةٍ مَّا أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج]

أما مريض بالفتح ، فهي الصالحة للرضاعة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل]

[المؤمنين] نلاحظ أن آية النحل ركزت على مسألة تصفية اللبن من بين
قرث ودم ، أما هنا فقد ركزت على منافع أخرى للأنعام ، فكل آية
تأخذ جانباً من الموضوع ، وتتناوله من زاوية خاصة ، نوضح ذلك
لمن يقولون بالتكرار في القرآن الكريم ، فالآيات في الموضوع الواحد
ليست تكراراً ، إنما هي تأسيس بلقطات مختلفة ، كل لفظة تؤدي في
مكانها موقفاً من العظة والعبرة ، بحيث إذا جمعت كل هذه التكررات
الظاهرة تعطيك الصورة الكاملة للشيء .

والمنافع في الأنعام كثيرة : منها تأخذ الصوف والوبر ، وكانوا
يصنعون منه الملابس والفرش والضيام ، قبل أن تعرف الملابس
والمنسوجات الحديثة ، ومن ملابس الصوف سُميت الصوفية لمن
يلبسون الثياب الخشنة ، وهم الآن يصنعون من الصوف ملابس
ناعمة كالصير يرتديها المترفون .

ومن منافع الأنعام أيضا جلودها والعظام وغيرها . يقول تعالى : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ مَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ (٨١) .

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٨٢) [المؤمنين] أي : أجمعا ، وذكر اللحم في آخر هذه المنافع ؛ لأنه آخر ما يمكن الانتفاع به من الحيوان ، وسبق أن ذكرنا أن الحيوان الذي أحله الله لنا إذا تعرض لنا يزدفق روحه ، فإنه يرفع لك رقبته ، ويكشف لك عن موضع ذبحة كأنه يقول لك : أسرع واستفد مني قبل أن أموت .

وفي لقطة أخرى لمنافع الأنعام يقول سبحانه : ﴿وَتَحْمِلُ أَوْتَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْعِيقَةِ إِلَّا لِنَفْسِكُمْ الْأَنْفُسِ﴾ (٨٣) [النحل] إذن : كل آية تحدث عن الأنعام تعطينا قاعدة لتفكر وترتبط بالقرآن كله .

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (٨٤)

﴿وَعَلَيْهَا﴾ (٨٤) [المؤمنين] أي : على الدواب تُحْمَلُونَ ، فتركب الدواب ، وتحمل عليها متاعنا ، لكن لما كانت الأرض ثلاثة أرباعها ماء ، فإن الحق سبحانه وتعالى ما تركنا في البحر ، إنما حملنا فيه أيضا . ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (٨٥) [المؤمنين] فكما أعددت لكم المعطيات على اليابسة ، الضيقة أعددت لكم كذلك ما تركبونها في هذه المساحة الواسعة من الماء .

ولما كان الكلام هنا عن الفلك فقد فاسد ذلك الحديث عمن له صلة بالفلك ، وهو نوح عليه السلام .

(١) الظن : الانتقال من مكان إلى مكان أي سائر . [الطبرسي التوهم ١/ ٤١٥] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ ۖ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِندَهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٢٢)

بعد أن حدثنا القرآن الكريم عن خلق الإنسان وخلق الحيوان ، وحدثنا عن بعض نعمه التي امتن بها علينا تدرج بنا إلى صناعة الفلك : لأنه قد يسأل سائل : وكيف تكون هذه الفلك أي : تخلق كالإنسان والحيوان بالتوالد ، أم تثبت كالزراع ؟ فأوضح الخالق سبحانه أنها وجدت بالوحي في قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا ﴾ (٢٧)

ومعنى ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [المؤمنون] أنها صنعة دقيقة ، لم يترك فيها الحق سبحانه نبيه يفعل ما يشاء ، إنما تابعه ولاحظه ووجهه إلى كيفية صناعتها والمواد المستخدمة فيها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَرْوَاحِ وَدُسِّرَ ﴾ (٢٨) [القصص] وهي الحبال ، كانوا يربطون بها ألواح الخشب ، ويضمون بعضها إلى بعض ، أو المسامير تُشدُّ بها الألواح بعضها إلى بعض .

لكن ، مهما أحكمت ألواح الخشب بعضها إلى بعض ، فلا بد أن يظل بينها مسام يتسرب منها الماء ، فكيف تتفادى ذلك في صناعة الفلك خاصة في مراجلها الحديدية ؟ يقولون : لا بد لصانع الفلك أن يجفف الخشب جيداً قبل تصنيعه فإذا ما نزل الخشب الماء يتشرب منه ، فيزيد حجمه فيسد هذه المسام تماماً ، ولا يتسرب منها الماء .

ومن عجائب القرآن ومعجزاته في مسألة الفلك قوله تعالى :

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (٢٩) [الرحمن] يعني : كالجبال الطافية .. وهذه الفلك لم تكن موجودة وقت نزول القرآن إنما

أخبر الله بها . مما يدل على أنه تعالى الذي امتن علينا بهذه النعمة ، علم ما يمكن أن يتوصل إليه الإنسان من تطور في صناعة الفلك ، وأنها ستكون عالية شاهقة كالجبال .

وطالما أن الكلام معنا عن الفلك ، فطبعي ومن المناسب أن نذكر نوحاً عليه السلام : لأنه أول من امتدى بالوحي إليه إلى صناعة الفلك ، فقال سبحانه : ﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ۖ (٢٣) ﴾ [المؤمنون] لما تكلم الحق سبحانه عما في الأنعام من نعم وفوائد ، لكنها تقول كلها - بل والدنيا معها - إلى زوال ، أراد سبحانه أن يعطينا طرفاً من الحياة الباقية والنعيم الدائم الذي لا يزول فنذكر منهج الله الذي أرسل به نوح ، وهو واحد من أولى العزم من الرسل .

والإرسال : هو أن يكلف مرسل مرسلاً إلى مرسل إليه ، فالمكلف هو الحق سبحانه ، والمكلف بالرسالة نوح عليه السلام ، والمرسل إليهم هم قومه ، والله لا يرسل إلى قوم إلا إذا كانوا يهيمونه ، وكيف لا وهم عباده وخلق ، وقد جعلهم خلفاء له في الأرض ؟

والذي خلق خلقاً ، لو صنع صنعة لا بد أن يضع لها قانون صيانتها ، لتؤدي مهمتها في الحياة ، وتقوم بدورها على الوجه الأكمل ، كما مكنا لذلك - وه تعالى المثل الأعلى - بصانع الثلاجة أو التليفرزيون حين يضع معه كتاباً يشرح تعليمات التشغيل وطريقة الصيانة وكيفية إصلاح الأعطال .

فالذي خلق الإنسان وجعله خليفة له في الأرض أولى بهذا القانون وأولى بصيانة خلقه : لذلك يقول سبحانه في الحديث القدسي : « يا ابن آدم ، خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتك من أجلي ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له » ، يعني : ما دام كل شيء

من أجلك يعمل لك ويؤدي مهمته ، فعليك أيضاً أن تؤدي مهمتك التي خلقتك من أجلها .

لذلك وضع لك ربك قانون صيانتك بأفعل كذا ولا تفعل كذا ، فعليك أن تلتزم الأمر فتؤدي به قهر سر الجمال في الكون ، وسر السعادة والتوافق في حركة الحياة ، وعليك أن تتجنب الفساد فلا تقربه ؛ لأنه سيؤدي إلى قبح . وسيكشف عورة من عورات المجتمع ، أما الأمور التي سكت عنها فانت حر فيها تفعل أو لا تفعل ؛ لأن ذلك لا يأتي بقبيح في المجتمع ، وهذه المسائل تسمى المباحات ، وقد تركها الله لحريتك واختيارك .

والحق - تبارك وتعالى - لما استدعى الإنسان إلى هذا الكون خلق له مقومات حياته من مقومات استبقاء الحياة من طعام وشرب وهواء واستبقاء النوع بالتناسل ، وقد شغل قانون الصيانة كل هذه المقومات ، فنظمها وحدد ما يحل وما يحرم . فقال : كل هذه ولا تأكل هذه ، واشرب هذا ولا تشرب ذاك ، ولو شاهدنا للمخترعين في مسائل المادة نجد المصانع يحدد مقومات صنعتهم ، فمثلاً هذا الجهاز يعمل على ١١٠ فولت ، وهذا يعمل على ٢٢٠ فولت ، وهذه الآلة تعمل بالبنزين ، وهذه بالسولار ، ولو غيرت في هذه المقومات تفسد الآلة ولا تؤدي مهمتها .

كذلك - والله المثل الأعلى - عليك أن تلتزم بقانون ومنهج خالقك عز وجل ، ولا تحد عنه ، وإلا فسد جالك وعجزت عن أداء مهمتك في الحياة . فإن أردنا أن نستقيم لنا الخلافة التي خلقنا الله لها وهي خلافة مصلحة لا مفسدة ، فعلينا بقانون الصيانة الذي وضعه لنا خالقنا عز وجل .

لذلك ، إن رأيت في المجتمع عورة ظاهرة في أي ناحية من نواحي الحياة فاعلم أنها نتيجة طبيعية للخروج عن منهج الله ، وتعطيل حكم من أحكامه ، فمثلاً حين ترى الفقراء والجوعى والمحاييج فاعلم أن في الأمر تعطيلاً لحكم من أحكام الله ، فهم إما كسالى لا يحاولون السعى في مناكب الأرض ، وإما غير قادرين حرمهم القادرون واستاثروا بالثروة دونهم .

البعض يقول : إذا كلن الحق سبحانه قد حرم علينا بعض الأشياء ، فلماذا خلقها ؟ ويمكثون لذلك بالخنزير مثلاً وبالخمر . وخطأ هؤلاء أنهم يظنون أن كل شيء خلق ليؤكل ، وهذا غير صحيح ؛ لأن الله تعالى خلق هذه الأشياء لمهمة تؤديها في الحياة ، وليس بالضرورة أن تؤكل ، فالخنزير خلقه الله لينظف البيئة من القاذورات ، لذلك لا تراه يأكل غيرها .

أما الخمر فلم تخلق خمرًا ، إنما هي ثمرة العنب الحلوة التي تؤكل طازجة ، أخذها الإنسان وتدخل في هذه الطبيعة وأفسدها بتخميره ، فصار الحلال بذلك محرماً .

نعود إلى قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ... ﴾ (٢٢)

[المزمنون] القوم : هم الرجال ، خاصة من المجتمع ، وليس الرجال والنساء . ببديل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْخَرُوا قَوْمَ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّنْ نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ... ﴾ [المجادل] فالنساء في مقابل القوم أي : الرجال .

ومن ذلك قول الشاعر^(١) :

وَمَا أَدْرِى وَسَوْفَ أَخَالُ أَدْرِى ۚ أَقَوْمَ آلِ حِصْنٍ^(٢) أَمْ نِسَاءَ

لكن هل أرسل نوح عليه السلام إلى الرجال دون النساء ؟ أرسل نوح إلى الجميع ، لكن ذكر القوم لأنهم هم الذين سيحملون معه أمر الدعوة ويسمحون بها ، ويبلغونها لمن لهم ولاية عليهم من النساء ، والرجال متوطون بهم القيام بمهام الأمور في عمارة الكون وصلاحه .

والإضافة في ﴿قَوْمِهِ...﴾ (٢٣) [المؤمنون] بمعنى اللام بمعنى : قوم له ؛ لأن الإضافة تأتي بمعنى من مثل : أردب قمح بمعنى من قمح ، وبمعنى في مثل : مكر الليل بمعنى في الليل ، وبمعنى اللام مثل : قلم زيد بمعنى لزيد .

فالمعنى هنا : قوم له ؛ لأنه منهم ومأمون عليهم ومعروف لهم سيrote الأولى . فإذا قال لهم لا يهتمونه ، إذن : فمن رحمة الله بالخلق أن يرسل إليهم واحداً منهم ، كما قال سبحانه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ..﴾ (١٧٨) [التوبة] ففي هذا إيناس وألف للقوم على خلاف ما إن كان الرسول ملكاً مثلاً ، فإن القوم يستوحشونه ولا ياتسون إليه .

لذلك ، فالنبي ﷺ كان يُسمَّى بين قومه وقبل بعثته بالصادق الأمين ؛ لأنه معروف لهم ماضيه وسيرته ومقومات حياته تُشجّع على

(١) هو : زهير بن أبي سلمى . حكيم الشعراء من الجاهلية ، كان أبوه وخاله وأخته سلمى وابناء كعب وبجير وأخته الطغساء شعراء . ولد في بلاد « مزينة » بنو لحي المدينة . من أشهر شعره مطلقته . توفي عام ١٣ ق . هـ . [الأعلام للزركلي ٢/ ٥٢] .

(٢) حصن بن حذيفة الفزاري . قاله ابن منظور في [لسان العرب - مادة : حصن] .

أَنْ يُصَدِّقُوهُ فِيمَا جَاءَ بِهِ . وكيف يصدقونه في أمر الدنيا ،
ولا يصدقونه في البلاغ عن الله ؟

إذن : ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون] أننا لم نأت لكم برسول من
جنس آخر ، ولا من قبيلة أخرى ، بل منكم ، وتعرفون ماضيه
وتاريخه ، فتانسون بما يجيء به ، ولا تتفنون منه موقف العداء .

أو يكون المعنى : إلى قوم منه ؛ لأنهم لا يكونون قوماً قوامين
على شئون إصلاح الحياة ، إلا إذا استمعوا منهجه ، فهم منه ؛ لأنهم
سيأخذون منه منهج الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَقَالَ يَتْلُوا آيَاتِ اللَّهِ مَا تُكْمِلُ مِنَ الْإِسْلَامِ
غَيْرُهُ..﴾ [المؤمنون] (يا قوم) استمالة وتحنين لهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ..﴾ [المؤمنون] والعبادة طاعة عابد لأمر معبود ،
والعبادة تقتضي تكليفاً بأمر ونهى . فالألوهية تكليف وعبادة ، أما
الربوبية فعطاء وتربية ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴾ [هود] أى : ربكم جميعاً : ربّ المؤمن ، وربّ الكافر ، ربّ
الطائع ، وربّ العاصي .

وكما قلنا : الشمس والقمر والأرض والمطر .. الخ كلها تخدم
الجميع ، لا فرق بين مؤمن وكافر ؛ لأن ذلك عطاء الربوبية ، وإن
سألت الكافر الجاحد : من خلقك ؟ من رزقك ؟ فلن يملك إلا أن
يقول : الله ، إذن : فليخز هؤلاء على أعراضهم ، وليعلموا أنه تعالى
وحده المستحق للطاعة والعبادة . فمقتضيات الربوبية والإيمان بها
تقتضي أن نؤمن بالألوهية .

كما أن الطفل الصغير ينشأ بين أبيه وأمه ويشب ، فلا يجد
غيرهما يخدمه ويقضى حاجته ويرفّر متطلباته ، بل ويزيل عنه الأذى

ويسهر على راحته . كل ذلك بروح سعيدة ونفس راضية مطمئنة ،
ربما يجوعان لتشبع ، ويعريان لتكسى ، ويعريان لتفسينها ليوفرا لك
الحياة الكريمة ، فإذا ما كبر الصغير وبلغ الحلم وبلغ الرجال نجده
يعلمها ، ويخرج عن طاعتها ، ويأخذ من أعضائهما أصدقاء السوء ،
ويؤذين له التمرد على أبيه وأمه .

ونقول لمثل هذا العاقبة : اخذ على عرضك واستنجح ، فليس هكذا
يكون رد الجميل ، وأين كان هؤلاء الأصدقاء يوم أن كنت صغيراً
تحتاج إلى من يعواك ويميط عنك الأذى ، ويسهر على راحتك ؟ قد
كان ينبغي عليك ألا تسمع إلا لمن أحسن إليك .

وهذا مثال لتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية - والله المطل الأعلى -
فكيف تأخذ من ربك عطاء الربوبية ، ثم تتنمر عليه سبحانه في
الألوهية ، فتعصى أمره وتكفر بنعمه ؟ كان من الواجب عليك الوفاء
للنعمه .

ولا بد أن تعلم أن ربك - عز وجل - سامون عليك في التكليف
بالأمر والنهي ، لأنك عبده وصنعتة ، وأنت حين تؤدى ما عليك تجاه
الألوهية لا ينتفع الله سبحانه من ذلك بشيء . إنما تعود منفعتها
عليك ، ومكافأ إذا ما ردت أمور الطاعة والعبادة والتكاليف لوجدتها
تعود في النهاية أيضاً إلى عطاء الربوبية ، لأنها تعود عليك أنت
بالنفع .

فنحن نأخذ الأوامر والنواهي على أنها تكاليف وأعباء يقتضيها
الإيمان بالألوهية ، نقول : نعم هي تكاليف من الله لكن لصالحك ، فلو
أنصفت لوجدت الألوهية من الربوبية ، فحين يحرم عليك شرب
الخمر ويحرمك من فساد العقل ، هل ينتفع سبحانه من ذلك بشيء ؟

لذلك يقول تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٢٥) ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [البقرة]

ويقول : ﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٨٧) ﴿[الزخرف]

فما دام هو سبحانه خالقكم ورازقكم وخالق السموات والأرض ، فلماذا تعصونه ؟ وهل تنقص عصيانكم من ملكه شيئاً ؟ وهل زاد في ملكه شيء بطاعة من أطاع ؟ هل زاد في ملك الله بطاعة الطائعين أرض أو سماء ، أو شمس أو قمر ؟

إن الحق سبحانه قبل أن يخلقكم خلق لكم بصرفات الكمال فيه كل مقومات حياتكم واستعدادكم إلى كون مُعَدًّا لاستقبالكم ولعمليشتكم .

إذن : فربك - عز وجل - لا تنفقه طاعة ، ولا تضربه مفسدة .

لذلك يقول في الحديث القدسي : يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وشاهدكم وخائيتكم اجتمعوا في صعيد واحد وسألني كل واحد مسألته فأعطيتهم له ما نقص ذلك مما عندي إلا كغرز إبرة في خدك إذا غمست في البحر ، وذلك أني جواد واحد ما جد عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إنما أمرى لشيء إذا أردته أن أقول له : كن فيكون .^(١)

إذن : حين تطيعني فالخير لك : لأنك جنت بهذا الطاعة حياة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧) كتاب البر والملة ، والترمذي في سننه (٢٤٩٥) من طريق آخر عن أبي ذر رضي الله عنه ، واللفظ للترمذي ، وقال : هذا حديث حسن صحيح

أخرى خالدة باقية بعد هذه الحياة الفانية التي مهما أترفت فيها فهي إلى زوال ، فإما أن تفوت نعيمها بالموت ، وإما أن يفوتك بالحاجة والفقر ، أما في الآخرة فالنعيم دائم باقٍ لا يفوتك ولا تفوته ؛ لأنها نعمة لا مقطوعة ولا ممنوعة .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت] فكان عطاء الألوهية ربوبية متعددة إلى زمن آخر غير زمن الدنيا ، فلا تظن أن طاعتك ستفيدني في شيء ، أو أن معصيتك ستضرني بشيء ، ومن هنا قال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل]

وقوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [المؤمنون] أي : معبود غيره ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون] هذا استفهام يحمل معنى التهديد والتوبيخ ، لكن كيف يُؤخِّضهم وهو لم يزل في مرحلة الأمر بعبادة الله ، ولم يسمع منهم بعد بوادر الطاعة أو العصيان ؟ قالوا : يبدو أنه رأى منهم إعراضاً فأمرهم بتقوى الله .

والتقوى معناها أن تجعل بينك وبين ربك وقاية تقيك صفات جبروته وقهره وتحميك من أسباب بطشه وانتقامه ، فليست مطيقاً لهذه الصفات . والوقاية التي تجعلها بينك وبين هذه الصفات هي أن تنفذ منهج الله بطاعة الأوامر واجتناب النواهي .

ومن عجيب تركيبات التقوى في القرآن الكريم أن يقول سبحانه : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [البقرة] ويقول : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ [البقرة] قالوا : نعم اتق الله ، واتق النار ؛ لأنك تتق الله من متعلقات صفات قهره وغضبه ومنها النار ، فحين تتق الله بالمنهج فقد اتقيت النار أيضاً .